

السّمات الفنية والدلالية في أدب المنفى وعلاقتها بتجليات الاغتراب
وأشكاله

-محمود سامي البارودي أنموذجا -

Artistic and semantic features of exile literature and their
relationship to the manifestations and forms of alienation

- Mahmoud Sami al-Baroudi

ط.د عيسى دهبازي 1

د.حنان مزهودي *

تاريخ النشر: 2024/07/31	تاريخ القبول: 2024/01/25	تاريخ الإرسال: 2023/12/17
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

كان للظروف السياسية والاجتماعية التي طالت العالم العربي فترة ما بين الحربين العالميتين أثر بالغ على حال الشعوب، وهذا ما زعزع النفوس، وأردى الأوضاع على أصعدة كثيرة، فبدأ التهجير والنفي من قبل الاستعمار للكثيرين خارج أوطانهم لأسباب استعمارية سياسية واجتماعية، ومعلوم أن الأدب الحق تعبير عن الواقع ومرآة عاكسة لآمال وآلام الناس، ومتنفس الكثيرين منهم خاصة فئة الكتاب والشعراء، فقد ظهر في تلك الفترة أدب يسيل رقة وعذوبة، وهو أدب المنفى الذي عكس ما طال أصحابه من نفي وتغريب فرض عليهم من قبل الاحتلال في عدة أقطار عربية خصوصاً الشام ومصر وغيرها، وقد كان هذا الأدب تحت لواء مدرسة أدبية عريقة لها اتجاه كلاسيكي وهي مدرسة الإحياء والبعث التي كان رائدها فارس السيف والقلم محمود سامي البارودي رائد النهضة الأدبية وحامل لواء إحياء الشعر العربي بعد نكبته.

المؤلف المرسِل: عيسى دهبازي ela.dehbazi@univ-blida2.dz1 عيسى دهبازي كلية الآداب واللغات جامعة البليدة -2. ela.dehbazi@univ-blida2.dz

* حنان مزهودي

فجاء أدب المنفى باسطة جناحيه ليكون المعبر عن ما قاساه هؤلاء بعيدا عن أوطانهم وأهلهم وخلانهم، والبارودي أحد هؤلاء، والذي مزق أكفان الشعر العربي التي احتوته في عصر الضعف بعد حملة المغول على الدولة العباسية، فأعاد بعثه من جديد وأعاد له رونقه وبريقه، متأسيا بإرث فحول الشعراء أمثال المتنبي وأبي تمام والبحري والحمداني محاكيا طريقتهم في النظم والأغراض والأوزان والسبك، مضيفا لمسات تجديدية بديعة جعلته بحق رائدا للإحياء والبعث، والبارودي كان صاحب طبع وموهبة فذة ومع ما بذله في إحيائه للشعر فإنه جدد أنثابه البالية بموضوعات من صميم تجربته الشعورية والحياتية ومن ذلك تجربته في المنفى والغربة وهي موضوع ورقتنا بحثنا، وجاءت موسومة بعنوان: السمات الفنية والدلالية في أدب المنفى وعلاقتها بأشكال الاغتراب وتجلياته البارودي أنموذجا.

وكانت دراستنا التطبيقية على نماذج شعرية راقية لهذا الشاعر واخترنا قصيدته "طيف سميرة" أنموذجا معتمدين المنهج الوصفي والتحليلي والأسلوبي، محاولين الإجابة عن تساؤلات عدة متضمنة في فلك خصوصيات الكتابة في أدب المنفى ومن بينها: ما أبرز السمات الفنية والدلالية في أدب البارودي؟ وما علاقتها بأشكال الاغتراب وتجلياته؟

الكلمات المفتاحية: سمات- المنفى- الاغتراب.

Abstract:

The political and social conditions of the Arab world between the two world wars have had a profound impact on the situation of peoples. And this is a disturbing thing, and the situation has worsened at many levels, and the displacement and exile by colonialism of many outside their homelands for colonial political and social reasons, It is well known that true literature is an expression of reality and a mirror reflective of people's hopes and pain. And many of them breathing, especially the category of writers and poets, showed up at that time a literature that is ruthless and torturous. s long-standing exile and alienation imposed on them by occupation in several Arab countries, particularly Al-Sham, Egypt and others, This literature was under the banner of an ancient literary school with a classical orientation: the Revival School, which was pioneered by the Knight of the Sword and the Pen, Mahmoud Sami al-Baroudi, the literary Renaissance pioneer,

and the holder of the Arab Poetry Revival Brigade after his melancholy.

The literature of exile was simply winged to reflect what they suffered far from their homelands and people and beyond. Al-Barodi, one of them, tore down the shoulders of Arab poetry contained in the era of weakness after the Mongol crackdown on the Abbasid State. He restored his mission and restored his chic and glamour, deploring the legacy of poets such as Al-Mutabi, Abi Tamam, Al-Bouhtori and Hamadani, simulating their ways in systems, purposes, weights and slumber. In addition, he added his exquisite innovative touches that made him truly a pioneer of revival and resurrection. The Barudian was a great impetus and talent. While he resurrected poetry, he renewed his outdated gowns with themes from the heart of his feelgood and life experience, including his experience in exile and exile. Artistic and semantic features in exile literature and their relationship to expatriate forms and paradigms.

Our applied study on high-end poetry models of this poet and our choice of his poem "Samira Spectrum" was an accredited model of descriptive, analytical and stylistic curriculum, trying to answer several questions included in the orbit of the idiosyncrasies of writing in exile literature, including: What are the most prominent artistic and semantic features of Barudi literature? What does it relate to expatriate forms and manifestations?

Keywords: traits - exile – alienation.

المؤلف المرسل: عيسى دهبازي ela.dehbazi@univ-blida2.dz

مقدمة:

يتمتع البارودي بشاعرية لا مثيل لها جعلته حامل لواء الإحياء والبعث وممهد النهج لمن بعده من أمثال شوقي وحافظ، والمتذوق المتفحص لشعر البارودي يجد محاكاة طاغية لفحول الشعر القدماء في أساليبهم وأوزانهم وألفاظهم وكثير من أغراضهم واستفتاحهم للقصائد، وهذا ما سنركز عليه في الدراسة التطبيقية بتحليل أسلوبه لمستويات مختلفة

لقصيدة "طيف سميرة" ومقطوعات شعرية أخرى نفيسة، واستخراج السمات الفنية والدلالية وإبراز علاقتها بتجليات الاغتراب وأشكاله عند هذا الشاعر الفذ، منتهجين المنهج الوصفي التحليلي والأسلوبي في الدراسة، لكن قبل الولوج لذلك ينبغي المرور بعتبة نظرية لبعض المفاهيم.

1. الاغتراب لغة واصطلاحاً وتجلياته:

إن الاغتراب مفهوم مترامي الأطراف وليس مجرد إبعاد إنسان عن وطنه فحسب، فجوانبه شتى وأنواعه جتى تنطوي تحت أبجديات السرد مفاهيمه ومنها الاغتراب السياسي، والاغتراب الزمني، والاغتراب المكاني، واغتراب الذات، فمنها ما يتعلق بحقول معرفية كعلم النفس، وعلم الاجتماع والفلسفة، وعند بعض المفكرين والأدباء أمثال الجاحظ الذي تحدث عنه في رسالة له بعنوان "الحنين إلى الأوطان" وضمت أنباء كثيرة عن الغربة وآثارها النفسية وانعكاساتها على العربي، وهو الذي شبه الغريب حال نفيه كغرس زال أرضه، لا يثمر، وهو أيضاً حسب قوله كالثور الناذّ فهو مرمى لكل قنينة... ونجد كذلك كارل ماركس يشرحه بمفهوم الاغتراب الاقتصادي والاجتماعي ويرى أنه أساس كل اغتراب، وما جاء في فلسفة هيجل عن هذا المفهوم وتفصيله فيه.

فالأوضح أن للنفي والاغتراب مفاهيم عدة وأبعاد كثيرة، وسنركز في دراستنا على المفهوم اللغوي والاصطلاحي وبعض الأبعاد لمفهوم النفي والاغتراب.

1.1 الاغتراب لغة واصطلاحاً:

لغويًا: الغربة والاغتراب والغرب وهو الذهاب والتنجي عن الناس، النوى والبعد، النزوح عن الوطن، وجاء في لسان العرب لابن منظور: يقال رجل غريب: بعيد عن وطنه، أغرب الرجل أي: صار غريباً، ومما لا شك فيه أن الانفصال عن الآخرين يرافقه الإحساس بالغربة والحنين أو ما قد ينتج عنه.

واغتراب عل وزن افتعال، وهو افتعال من الغربة، وصيغة افتعال تمنح اللفظة دلالة ذات سعة وشمولية.

وذكر الزمخشري حديثا في كتابه "الفائق في غريب الحديث": «اغتربوا ولا تضربوا أي لا تزوجوا القرابة القريبة» ويرى ابن منظور أنه من المادة اللغوية (عَرَبَ) وتوحي بالذهاب والاختفاء عن الناس والغريب الغامض من الكلام. والخبر المغرب الذي جاء غريبا حادثا طريفا، وغرب أي بُعد، وجاء في حديث أنه أمر بتغريب الزاني أي: نفيه وإبعاده¹.

ومفهوم الغربة عند كثيرين مقتصر على البعد عن الأوطان والمدن في تداولنا اللغوي، وأصل اللفظة **alienation** وهي كلمة لاتينية تعني: ينتقل، يحوّل، يسلم، يبعد... وقد أخذت مسيرة هذا المصطلح مراحل في التطور نذكر منها مرحلة ما قبل هيجل وكان المصطلح يدور في فلك ثلاث سياقات هي السياق القانوني والذي يعني انتقال الملكية عن صاحبها وتحولها لآخر، والسياق الديني بمعنى انفصال الإنسان عن الله، والسياق النفسي الاجتماعي ويعني انتقال الإنسان عن ذاته ومخالفته لما هو سائد في المجتمع. وسرعان ما أصبح فيما بعد دالا على معنى سلبي اقترن بكل ما يهدد وجود الإنسان وحرية، وكأنه مرض يلزمه².

2.1 تجليات مفهوم الاغتراب عند العرب:

كما أن ظاهرة الاغتراب قديمة قدم الإنسان في هذا الوجود فكثيرا ما تمخضت أزمات جعلته يتمرد ويعصي ويواجه المجتمع فينعزل وينكفي على ذاته فيغترب.. ويرجحها العديد من المفكرين إلى نظرية العقد الاجتماعي لجون جاك روسو، ثم انتقل مدلولها من لغة تجاوزت الذات المغترية اجتماعيا إلى معنى ذي بعد سياسي. والعرب كغيرهم من الأمم عرفوا هذا المظهر قبل الإسلام فكرة وإحساسا ومعايشة، لما كابدوا صروف الزمن وصعاب الحياة المليئة بالأهوال والمخاطر، وبعد أن جاء الإسلام بقي لهذا المصطلح وجود مع تغرب المنافحين عن الإسلام بعد أن وجدوا أنفسهم قلة وسط

مستنقع الكفر والضلال، رغبة في حماية الدعوة التي بدأت سرية، وزالت تلك الغربة بعد انتصار وتمكن الإسلام، كما نجد لهذه اللفظة تجليا في معجم المتصوفة وهو مفارقة الوطن في طلب المقصود.

وتاريخنا حافل بنماذج الاغتراب منذ الجاهلية نذكر منها: تغرب امرئ القيس صغيرا وكبيرا، فعندما كان صغيرا أنكر عليه أبوه قول الشعر، لأنه كان يرى أنه لا يليق بأبناء الملوك، وتغرب كبيرا بعد أن حمل دم أبيه وهو الأصغر بين إخوانه، وقد حمل مهمة الثأر من قتلة أبيه وقوله المشهور في ذلك: ضيعني صغيرا وحملني دمه كبيرا..

ونضرب مثال آخر لطرفة بن العبد الذي كانت غربته روحية بعد أن تمرد على قيم القبيلة والتحق بملك الحيرة، ليقتل غريبا ويلقى حتفه، واغتراب عنتر بن شداد اغترابا اجتماعيا بعد أن عير بسواده وألحق نسبه بأمة الحبشية ورفض أبيه أن يلحق به لكونه سيدا في عبس، ما جعله يتغرب ويقطع على نفسه عهدا بأن يكون فارسا يحمي عبس محاولا إثبات مكانته بين قومه وكان له ما أراد فيما بعد.

والشاعر عمران بن حطان بعد اعتناقه لمذهب الخوارج فهذا جعله يغترب اغترابا سياسيا دفعه لمعاداة السلطة وخوض قتال عقائدي ضدها إلى أن مات غريبا في عمان. ونذكر المتنبي الذي كابد مصاعب ومصائب الدهر وتربصات الأعادي، وهو الشاعر الطموح الذي تمرد على الواقع وعلى الملوك ليغترب اغترابا اجتماعيا وفكريا وروحيا ومكانيا وهو القائل:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود³

ونختم بالحمداني الذي عانى نفيا واغترابا روحيا بسبب مرارة الأسر وعذاب الشوق إلى الوطن والأهل، واغتراب المعري نفسيا ومكانيا وجسديا حتى لقب برهين المحبسين الأسر والعنى.

وفي بحثنا سنركز على الشعر الذي عكس تجربة البارودي في منفاه التي دامت سبعة عشر سنة بسرنديب، وهو الذي نفي ظلما لأسباب سياسية متعلقة بالثورة العربية والانتداب البريطاني، بعد كل ما قدمه لمصر، فكان بحق فارس قول وفعل. فالبارودي قبل النفي كان يتمتع بمكانة عالية في مجتمعه جعلته فاعلا في الحياة السياسية والاجتماعية، وما يرافق ذلك من إحساس بالرضى والتميز، وسرعان ما تلاشت هذه المشاعر بعد النفي ليحل محلها الإحساس بالعزلة والضعف والتهميش خاصة وأنه لم يعتد حياة الخمول لكونه وزير حربية له سجل حافل بالإنجازات.

3.1 تجليات الاغتراب عند البارودي:

ومن خلال الدراسات وجدنا أن للبارودي أشكالا من الاغتراب منها الزماني لما حنّ لشبابه وأيام الصبا ونورد أبيات في ذلك وهو ما جاء في قوله:
كيف لا أندب الشباب وقد أصـ بحت كهلا في محنة واغتراب
أخلق الشباب جدتي وكساني خلعة منه رثّة الجلاب
فهو يتحسر على تولي أيام الشباب وانقطاع ذكريات الصبا وكلما لاحت هذه الخواطر في خلده زادت ألمه وكآبه واستولت على كيانه.
إضافة لاغترابه المكاني ونمثل له بأبيات:

محا البين ما أبقت عيون المها مني فشببت ولم أقض اللبانة من سني
عناء ويأس واشتياق وغربة ألا شد ما ألقاه في الدهر من غبن
فإن أك فارقت الديار فلي بها فؤاد أضلته عيون المها مني
كما نجاهد يكثر من أمنيات العودة وتعلقه بأمل الرجوع إلى حضن الوطن، وله في ذلك قصائد نذكر أبيات من قصيدة له قوله:

أعائد بك يا ربحانة الزمن فيلتقي الجفن بين البين والوسن
أشتاق رجعة أيامي لكاظمة وما بي الدار لولا الأهل والسكن

فهل ترد الليالي بعض ما سلبت أم هل تعود إلى أوطانها الظعن⁴

وتتمحور دراستنا حول السمات الفنية والدلالية الماثوثة في ثنائيا أدب البارودي، وما عكسته وتعلق بتجليات الاغتراب والنفي وأشكاله، ولعل ديوانه يطوي شاعرية لا مثيل لها في جل الأغراض التي صاغها يراعه ورسمها بنانه وبيانه، ودثرها التجارب القاسية الكثيرة قبل وبعد النفي، والأروع هي التي نسجتها تجربة النفي والسجن بعيدا عن الأهل والوطن والأحبة..

وفي معرض الدراسة انصب التركيز في عرض السمات الفنية والدلالية على الشكل والمضمون في تحليل بعض النماذج الشعرية من ديوانه وقد اخترنا أربعة نماذج من أجود قصائده في المنفى وهي: قصيدة "آلام الاغتراب"، وقصيدة "طيف سميرة"، وقصيدة في محنة ذاته "شفي وجدي وأبلاني السهر"، وقصيدة "سرنديب".

أما الدراسة التحليلية التطبيقية فكانت على قصيدة "طيف سميرة" وهي قصيدة طويلة من سبعة وستين بيتا، وتعتبر قطعة فنية ومن أجمل ما خط البارودي في منفاه. وقد ركّزنا في الدراسة على تحديد الوحدات النصية، إضافة إلى مستويات منها ما يتعلق بالتركيب والدلالة والمعجم وبناء القصيدة، وكيف ساهمت هذه البنيات في إجلاء خلجات نفس الشاعر وهو يقاسي آلام النفي والإبعاد.

2. الدراسة التطبيقية والتحليلية لقصيدة "طيف سميرة"

1.2 القصيدة أفكارا ومضمونا:

اعتمدنا في تحليلنا للقصيدة الجانبين معا الشكل والمضمون، فالقصيدة شكلا شعر عمودي لها وزن نظمت على بحر الطويل ورويها الراء، فالبارودي هنا انتهج نهج القدما في الشعر وهو رائد النص الإحيائي بامتياز يحتذي حذو فحول الشعر القدماء، أما من ناحية المضمون فقد اشتملت القصيدة على خمس وحدات نصية عنوانها كما يلي:

[13-1] زيارة طيف واستيقاظ هواجس.

[14-22] لوعة وفراق وجزع نفس.

[41-23] حكمة وتجلّد وتمسك بأمل.

[60-42] افتخار الشاعر بنفسه تسلية لنفسه.

[67-61] تكشف غم وانجلاء محنة.

والشاعر في أبياته يوجه خطابا لنفسه محاورا إياها داخليا مختلعا الموقف بعد عناق الطيف له في المنام، وقد لجأ لتوظيف عاطفة الأبوة والحنين لطفلته الصغيرة عن طريق حلول طيفها في خياله، فنراه يخاطب هذا التمثل الوجداني ويحاوره بلهفة معدّدا صفاتها وأحوالها⁵، ونصه يسير في طريق التصوير المركب، منتجا صورة وراء صورة ومستعرضا ذلك بملامح نفسية.

الهروب إلى الماضي:

لجأ الشاعر إليه لعله يجد فيه سلوى له، بعد أن حرّك الطيف شجونه وأجج هواجسه، وهذا ما أشعره بالضعف والهوان والعجز ورؤيته للطيف استدعى إلى ذهنه البؤس والحرمان لابنته التي صوّرها في قوله:

خماسية لم تدر ما الليل والسرى ولم تنحسر عن صفحتها الستائر

فهي صغيرة السنّ وصغر سنّها هذا أثار حزنه فهي في مثل هذا السنّ بأمس الحاجة إليه ليرعاها ويمدها بحنانه، وربما ذكره هذا الحاضر بيتمه هو، إذ ذاق مرارة اليتيم هو في السابعة من عمره كما ذكر ذلك حسين هيكل في مقدمة الديوان، ومما زاد ألمه كذلك استحضاره للماضي الجليل لبناته بدلا من استحضار الآلام والأحزان كما في قوله:

عقيلة أتراب توالين حولها كما دار بالبدر النجوم الزواهر

فهنا شبهها بالبدر الذي تحيطه النجوم المضيئة.

ونجده أيضا في بيت آخر يدلل على النعيم الذي كنّ يعيشه قبل نفي الأب وهو قوله:

غوافل لا يعرفن بؤس معيشة ولا هن بالخطب الملم شواعر

وقوله:

تعوّدن خفض العيش في ظل والد رحيم وبيت شيدته العناصر
ويواصل تصوير الماضي المشرق لبناته في قوله:

فهن كعنقود الثريا تألقت كواكبه في الأفق فهي سوافر
الهروب إلى الأمل والأمني:

نجده في وحدات نصية أخرى قد هرب إلى الأمل بعد أن أضناه الطيف وأحزنه تذكر
الماضي، فنجده يتمسك بحبل الأمل ولولا الأمل لهلك يأسا كما أفصح في قوله:
ولولا أمني النفس وهي حياتها لما طار لي فوق البسيطة طائر
فهو الآن يعيش على الأمني وبالعودة إلى البلد وانجلاء الغمة ولو بعد حين ونجد ذلك في
الآبيات:

فسوف يبين الحق يوما لناظر وتنزو بعوراء الحقود السرائر

وما هي إلا غمرة ثم تنجلي غياباتها والله من شاء ناصر

فقد حاطني في ظلمة الحبس بعدما ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر

وتعبيره ب(سوف) يدل على تعلقه بالأمل بأن تتحسن أحواله المستقبلية، وأما تنكيهه
ل(يوم) فيدل على أن حدوث هذا الأمر سيكون يوما ما غير معلوم، لذا جاءت ثم بدلاتها
على التعقيب والتراخي لتبيان صعوبة تحقق الأمل مع كونه محتمل الوقوع، وربط ذلك
بمشيئة الله تعالى في قوله: والله من شاء ناصر.

وجاء التذييل في البيت الثاني تسليما بالقضاء والقدر⁶.

وفي وحدة أخرى نجده لما وجد أن المثاب مصابه ولا أحد يخفف عنه، فقد انكفأ على نفسه
محاولا التخفيف بقوله:

ومن لم يذق حلو الزمان ومرّه فما هو إلا طائش اللب نافر

فهو يصوّر تقلبات الزمن، وكل إنسان عرضة لنوائبه، وعجزه ليس دافعا على
الاستسلام بل مخرجا لمكان القوة والهمة في نفسه، لمقاومة الألم والإصرار على النهوض في
قوله:

السّمات الفنية والدلالية في أدب المنفى وعلاقتها بتجليات الاغتراب وأشكاله -محمود سامي البارودي أنموذجا-

عليّ طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر
فما كل محلّول العريكة خائب ولا كل محبوك التريكة ظافر
وما يدل على علو همته قوله: طلاب العز من مستقره.
ولعل ما خفف عليه وطأة المصائب أن ما أصابه كان ثمنا لثباته على مبادئه ورفضه الخيانة
ونجد ذلك في قوله:

ولو رمت ما رام امرؤ بخيانة لصبّحتي قسط من المال غامر
ولكن أبت نفسي الكريمة سوءا يعاب بها والدهر فيه المعابر
افتخاره بنفسه:

يمثل ذلك مظهرا من مظاهر اغترابه والأبيات في ذلك كثيرة وأغلبها ف الوحدة
النصية الرابعة كما حدّدنا في البداية، نذكر منها قوله:

فلا غرو أن حزت المكارم عاريا فقد شهد السيف الوغى وهو خاسر
أنا المرء لا تثنيه عن درك العلا نعيم ولا تعدو عليه المفاقر
قوول وأحلام الرجال عواذب صوول وأفواه المنايا فواغر
نلاحظ كذلك في القصيدة الانزياح ومظاهرة متعددة نذكر منها: انزياحه في البيت الأول بين
ما جاء في الصدر وما جاء في العجز.
وأیضا هناك خرق للغة العادية بإسناد فعل (الرؤية) إلى الخواطر، أي الانتقال من حقيقة
إلى مجاز.

وتجلي ثنائية السلب والإيجاب: فتبدأ القصيدة بزيارة الطيف (+) لكنه في العجز
سرعان ما يتلاشى فهو خيال عابر (-) وهو تعارض وجداني نفسي يعيشه البارودي يتأرجح
بين كفي الآلم الاغتراب والشوق والحنين بصورة متزامنة، فهي ليست عابرة كما تمنى الشاعر
وسلّى نفسه بذلك.

إضافة إلى تجلي ظواهر أسلوبية كثيرة كالتضاد الكثير نمثل له بـ: غربة ≠ وطن، الشاعر ≠ الأعداء الحياة ≠ الموت، الفقر ≠ الغنى، الشجاعة ≠ الجبن، التحدي ≠ الاستسلام، التسليم بالقضاء ≠ الضجر، الحق ≠ البطل، الأمل ≠ اليأس، البراءة ≠ الخبث، المجد ≠ الصغار، الانتصار ≠ الهزيمة، الصبر ≠ الجزع...

وملاحظة غلبة الأساليب الخبرية التقريرية المناسبة لغرض البوح بخلاجات النفس، إضافة إلى وضوح الأسلوب الشرطي على طول فضاء النص وأسر المتلقي لمعرفة جواب كل أسلوب: إذا أحسنت يوما، إذا تم أمره، إذا قل النصير، إذا المرء لم يركن إلى الله، لولا تكاليف السيادة... فقيمة الشرط هنا وظيفية إضافة للقيمة الجمالية التي يضيفها في الاتساق وبناء القصيدة.

كما نلاحظ تزاوج التوتر والهدوء في كل وحدة نصية، ففي الوحدة النصية الأولى نجد التوتر من قوي إلى أقل قوة، وحضور طيف الابنة خلق تواترا قويا في نفس الشاعر، وهيج ذكرياته، بعدها نجد مقاساته الشعورية للفراق يعود في الوحدة النصية الثانية، ليهدأ بعد ذلك ويفر بعدها إلى الصبر والحكمة مؤمنا بالأمل والاستقرار النفسي، ثم يرتفع التواتر من جديد في الوحدة النصية الثالثة، ليستعين الشاعر بالفخر وهو من أكثر الشعراء المحدثين إجادة له، كمحاولة لتخفيف وطأة الألم وإعادة الهدوء النفسي، وفي آخر وحدة نصية يقتحم الشاعر رحاب التصوف والتعلق بالله والارتقاء إليه كونه القدار على تحويل الكرب إلى يسر وفرج، وهذا السير دليل على المزيج المكون من التوتر والشجن والصبابة في عمق نفس الشاعر.

2.2 صوتيا وموسيقيا:

من حيث الموسيقى الشعرية نجده اعتمد بحر الطويل بعد تقطيعنا لنماذج من القصيدة وهو بحر مناسب لأغراض القصيدة المتنوعة ونضع البيت الأول كمثال على ذلك:

تأوب طيف من سميرة زائر	وما الطيف إلا ما تريه الخواطر
تأووب طيفن من سميرة زائرو	ومططيفإللا ما تريه لخواطرو

0//0//0/0//0/0/0// /0/0//

0//0//0//0/0/0// /0//

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولُ مفاعيلن فعولُ مفاعيلن

أما القافية فهي: واطروا 0//0/ ورويهما هو حرف الراء، وهو حرف مجهور له صفة التكرار، ونجد تكراره بشكل ملفت في جل ألفاظ القصيدة تمثل لذلك ب: زائر، ضارب، أرواقة، البحر، قرب، طار، أمري، دار، ترب، أمره، رب، السرى، سار، تنحسر، البدر، أتراب، ثريا، ذكرى، يعرفن، رحيم...

3.2 تركيبيا:

أما في المستوى التركيبي وبخصوص الأفعال المستعملة من حيث اللزوم والتعدي، فنجدها مئة وتسعة فعلا، منها سبعة وخمسون فعلا لازما، واثنين وخمسين فعلا متعديا، وهو توازن أعطى تناغما وانسجاما في بنية القصيدة.

أما الضمائر فإن الذي يشد الانتباه هو علاقة ضمير الغائب بالأفعال المسندة للطيف وهي أفعال: طوى، ألم، تخطى، لم يلبث، سار، أقام، تحمّل، وفاعلها جميعا هو ضمير الغائب الذي يعود على الطيف.

إضافة إلى أزيد من خمسين اسم فاعل نذكر منها: زائر، ضارب، حائر، زاهر، جابر، ناظر، طائر، صائر.. وتوظيفه لصيغ منتهى الجموع ومنها: خواطر، دياجر، ستائر، زواهر، غوافل، عشائر، حوافر، سمادر، حناجر، مآزر، مقادير، عناصر، عواثر، مآثر... وكلها على صيغة "مفاعل" الدالة على الكثرة.

أما عن الجمل فنجد الشاعر قد زواج بين الجمل الفعلية، الدالة على التحول والحركية، وهو ما يعكس نفسية الشاعر وما يشعر به من جراء آلام النفي والسجن والظلم والفراق ساعيا سعيا جادا للتخلص منه.

بالإضافة للجمل الاسمية الدالة على الثبات وهي مناسبة لوصف طيف الابنة، والفخر لما اعتد بنفسه وتصوير باطنه.

4.2 معجميا ودلاليا:

أما في المستوى المعجمي فما يميز البارودي في كل أشعاره هو معجمه التراثي الجزل واعتداده بلغة القدامى واستعمالاتهم وأساليبهم، متبعا نهجهم، فهو رائد النص الإحيائي بلا منازع، والمعيد للشعر بريقه وقوة ديباجته ونضارته، ومن هذه الألفاظ: تأوب، سدفة، أرواقة، ألمّ، دياجر، سمادر، واطر، السرى، جازر، عقيلة أتراب، زواهر، سوافر، الخطب الملم، بسيطة، نهائب، عقائر، دهته، ترة، واطر، مندوحة، معاذر، جودود عواثر، عريكة، محبوبك التريكة، يستجم، مفاقر، عواذب، غمرة، كعب، تنفت المرائر، بهرا... وكذلك تجلي عدة حقول أشهرها حقل الفخر ومن الألفاظ المندرجة ضمنه: أبت نفسي، ملكت، أنا المرء، صؤول المفاخر..

حقل الصبر والجلد والأمل: تحمل، الخطب، أهيم، أمانى النفس، دهته، حلو الزمان ومره، يركن إلى الله، الردى، طلاب العز، عارضتني، مكذوب المن... أما عن ألوان البيان فقد تفتن البارودي أيما تفتن وليس الأمر بغريب عن من يخطو خطو أرباب الشعر وسادته من طينة المتنبي وأبي تمام والبحري وغيرهم من الفطاحل، ونمثل لذلك بـ:

التشبيهات ومنها التمثيلي في قوله:

عقيلة أتراب توالين حولها كما دار بالبدر النجوم الزواهر

وقوله: فهن كعنقود الثريا وقوله: سدفة الظلماء، وهو تشبيه إضافي وغيرها ...

ونذكر كذلك الاستعارات في أمثلة: تحمل أهوال الظلام، درى أنها بين الأنام تقامر، يستقيم الأمر بعد اعوجاجه، يذق حلو الزمان ومره... النجم بالأفق حائر...

ومن الكنايات قوله: تعودن حفص العيش، وهي كناية عن صفة رغد العيش والنعيم، وقوله محبوبك التريكة، كناية عن القوة والشجاعة وشدة البأس تنفت فيها المرائر، كناية عن أهوال ذلك اليوم وشدائده.

فكلها لم تخرج عن الصور البيانية التقليدية التي أثرت عن القدامى غير أنها أضفت جمالا ورونقا وشح الأبيات ورقى بشعريتها⁷.

5.2 مقدمات قصائده:

أما عن اسفنتاحه القصائد فنجد البارودي يحتذي حذو القدامى فنجد له قصائد يستفتحها بمقدمات طليّة وغزلية ووصفية وراثية وخمرية وحكمية ومرة بمخاطبة الصاحبين والحمامة والريح، إضافة إلى إبداعه في فن المعارضات ومعارضته لبعض الشعراء العظام:

فقال قصيدة بسرنديب من أربعين بيتا من البسيط:

لكل دمع جرى من مقلة سبب وكيف يملك دمع العين مكتئب؟
وقوله: أترى الحمام ينوح من طرب معي وندى الغمامة يستهل لمدمعي

وقوله من الخفيف:

أدر الكأس يا نديم وهات واسقنيها على جبين الغداة
وقال من مجزوء الرمل:

زممي الكأس وهاتي واسقنيها يا مهاتي

وقوله: أديرا كؤوس الراح قد لمع الفجر وصاحت بنا الأطيار أن وجب السكر

وقوله: أسلة سيف أم عقيقة بارق أضاءت لنا وهنا سماوة بارق

قوله: يا نديمي من سرنديب كفا عن ملامي وخلياني لما بي

لا أبالي بما يقال وإن كذ ت مليئا برد كل جواب

وقوله: هل من طبيب لداء الحب أو راقى يشفي عليلا أخا حزن وإيراق

وقوله: شفني وجدي وأبلاني السهر وتغشني سمادير الكدر

وقصيدة بعد أن أفرج عنه ووصل مصر بعد كبر سنه ومريضه فوصفها في قصيدة بديعة
مطلعها:

أبال رأي العين أم هذه مصر فإني أرى فيها عيوننا هي السحر
وقوله في الحكمة: بادر الفرصة واحذر فواتها فيلوغ العز في نيل الفرص
ومرثية تسيل رقة وعذوبة يرثي بها زوجته:

ورد البريد بغير ما أملتة تعس البريد وشاه وجه الحادي
فسقطت مغشيا عليه كأنما نهشت صميم القلب حية وادي
لوكان هذا الدهر يقبل فدية بالنفس عنك لكنت أول فادي
وقوله: يا دهر فيم فجعتني بحليلة كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنت لم ترحم ضنايا لبعدها فهلاً رحمت من الأسى أولادي
أفردتهن فلم ينمن توجّعا قرى العيون رواجف الأكباد

خاتمة:

نجل فنقول إن الدراسة من حيث الشكل كان التركيز فيها على طبيعة الألفاظ
الجزلة الطاغية والتي نجدها تتلاقح مع بعض الألفاظ المعاصرة، والحقول المعجمية
الطاغية التي تدرت بثوب الإيحاء وعمق الدلالة عن المعاناة، وما يختص بالنظم بحرا
ورويا وقافية، فنراه يعتمد البحور الطويلة المناسبة للأغراض الجلييلة التي تحتاج نفسا
وبوحا لتغير خلجات نفسه كالطويل والبسيط والكامل والوافر، ورصد الظواهر الأسلوبية
الموجودة من تكرار وتضاد وبديع وبيان وأساليب وهو المبدع في تخير الجميل من الصور
والمجازات، إضافة إلى الوقوف عند روعة الديباجات في كل قصيدة وشبهها بنفائس قصائد
فحول الشعراء كالمقدمة الوصفية والطليلية وخطاب الحماسة والريح والصاحبين،
وملاحظة إبداعه في فن المعارضة، أما من حيث المضمون فكان التركيز على العلاقات
المعنوية وتجسيدها للحالة الشعورية للشاعر في قصيدته، فنجد قصائده نسيجا منتظما
متكاملا يقوم كثير منها على وحدة البيت معطية انسجاما وسلاسة، إضافة إلى تعدّد

السّمات الفنية والدلالية في أدب المنفى وعلاقتها بتجليات الاغتراب وأشكاله -محمود سامي البارودي أنموذجا-

الأغراض وجمال انتقاله بينها فتجده يفتخر ويرثي ويصف ويحن ويتحمس في القصيدة الواحدة، وكل هذا خادم لموضوع قصيدته الرئيسي، وهو بث شجونه والتعبير عن خلجات نفسه، ووصف حاله وحال بلاد المنفى وتذكره لأيام صباه وشبابه، ولسع الصبابة له اشتياقا لأهله وزياره طيف سميرة ابنته له، وتعلقه بخيط أمل رفيع في العودة إلى تراب الوطن ولو بعد حين.

فكل هذه السمات جعلت نظمه متفردا من كل النواحي لفظا ومعنى ووزنا ومعنى، وما ذكرناه لم يكن إلا ملخصا عن دراستنا التي تحاول الإجابة عما يدور في فلك خصوصيات الكتابة في أدب المنفى وسمات ذلك فنيا وداليا وعلاقة كل هذا بأشكال الاغتراب وتجلياته عند هذا الشاعر الفذ.

فالبارودي ذو نزعة ذاتية موهلة عميقة عمق بلواه، وقد تأرجح كيانه بين تسليية ومدارة وإيقاف لزحف عواطفه، هاربا للحكمة والفخر والحلم إلا أنه لم يستطع كبح جماح نفسيته المتصدعة من جراء مكابدة أهوال النفي والتغريب والظلم، والرزايا التي جات تباعا، والحنين الحارق للوطن والأهل والخلان الذين فارقهم مكرها لا طاقة له ولا خيار سوى أن مواقفه مناهضة للانتداب البريطاني وهذا ما كلفه الإبعاد والنفي بعد كل ما قدمه من خدمات جليلة، ثم الإفراج عنه بعد صبر وصبر حتى سقط منه الشيء الكثير... فكان أدبه ذا خصوصية منفردة من كل النواحي وقد طوى شاعرية قد نظيرها في ذلك الزمان بعد أن مزق أكفان الشعر العربي وأعاد له الروح بعد أن كان جسدا باليا ..

الهوامش:

¹ ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، مصر، مج 11، د ط، د ت، مادة غَرَبَ، ص 23.

² ينظر: خليفة، عبد اللطيف، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غرب للطباعة والنشر، القاهرة، 2003، ص 21.

³ ينظر: فجرة شايبي، شعر المنفى في العصر الحديث محمود سامي البارودي أنموذجا، ليسانس، إشراف: حسين مشاركة، جامعة الوادي، 2014.

⁴ ينظر: محمود سامي البارودي، الديوان، تح: علي الجارم، دار العودة، بيروت، لبنان، ط 1998، ص من 67-70-71-73-635.

⁵ <https://naderabdelkhalik.blogspot.comblog-post.html>، نادر عبد الخالق، شعراء غرباء، 2023-11-26.

⁶ ينظر: عبد الباسط محمد الزبود، ثناء نجاتي عياش، مظاهر الاغتراب في قصيدة "طيف سميرة" لمحمود سامي البارودي، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مجلد 10، العدد 02، نيسان 2014، ص 11.

⁷ ينظر: شعر المنفى في العصر الحديث محمود سامي البارودي أنموذجا، مذكرة ليسانس، ص 135-153.